الحياة الطيّبة
السـنـة 20
الـعـدد 35
خريف 2016 م
ملف العدد



# الفقه السننيّ في إعمال منطق التعارف الحضاريّ

## - مقاربة استشرافيّة تأصيليّة -

الدكتور بُوعُبَيد الازدهار[1]

**خلاصة المقالة:**

إنّ البصير بأحكام شريعة الإسلام والواقف على مقاصدها وغاياتها، يجد أنّ مبادئ التعارف والتعايش هي من الأصول الجوهريّة والمقوّمات الحضاريّة التي قام عليها الإسلام ولا يزال؛ بوصفها ضرورة من ضرورات استقامة العمران الإنسانيّ. ولأجل ذلك؛ فقد حرص الإسلام على إرسائها في وسط المجتمعات الإنسانيّة منذ بداية الدعوة الإسلاميّة، ورغّب المسلمين في تبنّيها والتحلّي بها، ليس مع المسلمين فحسب؛ وإنّما مع المخالفين لهم أيضًا.

وقد سعت هذه المقالة إلى الوقوف على مبرّرات دعوة الإسلام إلى إقرار مبدأ التعارف والتعايش مع الأنساق العقديّة والاجتماعيّة المختلفة، واستشراف مستقبل التعارف الحضاري الإنسانيّ؛ برؤية تأصيليّة من القرآن الكريم والسنّة الشريفة، واستثمارها في إعمال منطق التعارف الحضاري والتقريب بين الشعوب والأديان؛ انطلاقًا من التجربة النبويّة الشريفة، وكذا رصد قيم التعايش الديني والتعارف الحضاري في الهدي النبويّ من خلال النماذج التفسيريّة، التي شكّلت ترجمة عمليّة لهذه القيم وتمثّلها في العلاقات الإنسانيّة والحضاريّة.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

## مصطلحات مفتاحيّة:

الاستشراف، الفقه السننيّ، التأصيل، التعارف الحضاريّ، التدافع التعاونيّ، التجربة النبويّة، السنن الإلهيّة، الأنساق الحضاريّة، المشترك الإنسانيّ.

## مقدّمة:

ثمّة ضرورة لإعمال سنن التعارف وتفعيلها بين مختلف الأنساق الحضاريّة، وبخاصّة في ظلّ الظروف الراهنة التي تعرف أجواءً من التنافر والتجاذب في المواقف، تتراوح بين منطق الإقصاء والتهميش، وبين منطق التناغم والتفاعل، وهو تدافع مطلوب؛ لأنّه ذو بعد تعاوني يروم إشراك الجميع في تحمّل مصير الإنسانيّة ومستقبلها، وينقل العلاقة بين الأطراف المتدافعة من الجمود والسكون إلى الفعل الحضاريّ، وهذا من شأنه أن يفضي إلى التعارف والتعايش بين الجميع من دون انتقاء ولا تميّز.

وقد شكّلت التجربة النبوية أنموذجًا رائدًا في تفعيل سنن التعارف؛ باستيعابها واستثمارها للمنهج السنني، وإعماله في علاقاتها مع الأمم والشعوب المجاورة للدولة الإسلاميّة. فما هي إذًا حقيقة هذا التعارف والتعايش بين الحضارات؟ وما هو وجه الحاجة إليه، خاّصة في ظلّ استمرار تحكيم الحضارة الغربيّة للمنطق العدواني وتزايده على البلدان والشعوب المستضعفة؟ وما هي أهمّ الإمكانات والمداخل الحضاريّة للدفع بالتعايش السلميّ والتعارف الحضاريّ؟ ثمّ كيف نستثمر المنهج النبويّ في التقريب بين الأنساق الحضاريّة وتحقيق التعارف والتعايش؛ انطلاقًا من المشترك الإنسانيّ؟ وكيف نستشرف المستقبل الحضاري للمجتمع الإنسانيّ من خلال رؤية تأصيليّة تنطلق من القرآن الكريم والسنّة الشريفة؟ هذه الأسئلة وغيرها سنحاول مقاربتها من خلال هذه المقالة.

### أولًا: الأنساق الحضاريّة قبل الإسلام ومبرّرات التعارف:

لقد كانت العوالم الحضاريّة، إلى أنْ ظهر الإسلام، تعيش صراعات دامية

بين النظم القائمة في بلاد الجزيرة العربيّة والبلدان المجاورة لها، على أساس النفوذ والسيطرة والتوسّع، وهو ما ترتّب عنه ذيوع الفتنة وانتشارها في البلاد العربيّة، وزعزعة الاستقرار فيها، وافتقاد الأمن بجميع أنواعه؛ حيث مرّت البشريّة في ظلّ هذا الوضع المأزوم بفترات عسيرة، غابت فيها كلّ مقوّمات الحياة السعيدة، فاضطربت الحياة وغابت الأسس والقواعد السليمة لبناء علاقات التعارف والتآلف والتعاون بين الأمم والشعوب.

فلم تعرف الأرض سلامًا، ولم تَعْلُ فيها راية الأمن عبر الأطوار الكثيرة التي مرّت بها، حتى يئست البشريّة من التمتّع بالسلام، وظنّت أنّ الصراع بينها ضرب لازب، إذ افتقدوا الأمن على دينهم وأنفسهم، وبقي الأمر كذلك حتى بزغت شمس الإسلام، ببعث محمد بن عبد الله، بالرسالة الكاملة التي صدّقت على تراث النبوّات كلّها، وأعادت تقييمه كاملًا نقيًّا مصحوبًا برؤية شاملة للكون والإنسان والحياة، وأوضحت منطلقات الاستخلاف والابتلاء، والتسخير، والأمانة؛ لترسي بذلك قواعد الأمن ودعائم الاستقرار ومنطلقات السلام، ولتقضي على كلّ وسائل السيطرة -سيطرة الإنسان على الإنسان- ولتبنّي ضوابط الحرّيّة والتحرّر[1]. وقد كان هذا واضحًا جليًّا؛ حينما عمل النبي ﷺ على نقل هذه القيم والمبادئ إلى فعل وممارسة من دون تحيّز إلى نسق عقديّ دون آخر؛ وإنّما تعامل بالمنطق نفسه مع كلّ الأنماط المغايرة في الجزيرة العربيّة، بل عمل ﷺ من خلال العهود والمواثيق التي كتبها -سواء مع اليهود أم مع النصارى- على إعطائهم من الضمانات ما يبدّد مخاوفهم، ويزيل هواجسهم[2].

وقد بدا التزام التعايش بين المسلمين وأهل الكتاب واضحًا في مقتضيات «دستور» الدولة الإسلاميّة، وكذا في المعاهدات مع النصارى، ومن خلال معظم تلك الرسائل ومكاتبات الملوك ورؤساء الدول. ولذلك؛ فإنّ وضع

(1) انظر: العلواني، طه جابر: الخصوصيّة والعالميّة في الفكر الإسلاميّ المعاصر، تقديم: عبد الجبار الرفاعي، سلسلة قضايا إسلاميّة معاصرة، ط1، بيروت، دار الهادي، 1424هـ ق/ 2003م، ص44-45.

(2) انظر: أبو طالب، عبد الهادي: «عالميّة الإسلام، ونداؤه للسلام، ودعوته للتعايش والاعتراف بالآخر»، مجلة الإسلام اليوم، العدد19، السنة19، 1423هـ ق/ 2002م، ص42.

التناحر والتقاتل، وفقدان كلّ معاني الأمن والسلم والتعايش بين مختلف الأنساق الاجتماعيّة والعقديّة، جعل النبي ﷺ يوجّه دعوته إلى العالمين؛ لترسيخ قيم التعايش بين الديانات في وفاق على كلمة واحدة. وهو ما انعكس عنه من إخراج تناحر الديانات العالمية من مأزقه، حيث دخل العالم في عهد من الوئام والتفاهم والتعايش بين العقائد[1]؛ يقوم على مبدأ عظيم جاء به القرآن الكريم عندما أعلن أن ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾[2].

إنّ وضع التناحر الدينيّ القائم على التعصّب القوميّ والإرهاب الفكريّ، وسيادة قانون الغاب، الذي وجدت عليه المنطقة عند بعثة الرسول الكريم ﷺ برسالة الإسلام إلى العالمين، جعله يسلك منهج الانفتاح على اعتبار عالميّة الرسالة الخالدة؛ لأنّ الانغلاق والعزلة على الذات أمران مجافيان لطبيعة الإسلام الحركيّة والاتّصاليّة المتطلّعة إلى التلاقي والتعارف، كما إنّ أمر التسليم بالدين الجديد وبالمشروع الحضاريّ الإسلاميّ، يتطلّب أكبر قدر من الانفتاح على العالميّة[3]؛ وإنْ كان الضمير الإنسانيّ لم يألف بعد العمل على حدود الثقافات؛ إذ تسيطر عليه عادات جذبيّة مزمنة، تدعوه إلى أن يرى الأشياء من زاوية ضيّقة[4]، فتحرمه من التواصل والتعارف مع الثقافات المتغايرة، وممارسة دوره الثقافي في الإسهام في مسيرة بناء الصرح الحضاري؛ فالأمم التي اعتنقت الإسلام ودانت به هي أمم عريقة عرفت حضارات شتّى وثقافات متعدّدة، ومرّت بتجارب روحيّة ومادّيّة متنوّعة. لذلك؛ فقد اتّصل المسلمون بهذه الأمم جميعًا كما اتّصلت بهم، فعرف المسلمون حضارة الهند، وحكمة إيران، وممارسات المتصوّفة؛ ما أعطى للحضارة الإسلاميّة مبناها ومعناها[5].

---

(1) انظر: أبو طالب، «عالمية الإسلام ونداؤه للسلام ودعوته للتعايش والاعتراف بالآخر»، م.س، ص41.

(2) سورة البقرة، الآية 256.

(3) انظر: مراح، محمد: «نحو رؤية إسلامية لتعارف الحضارات»، ضمن كتاب «تعارف الحضارات» لمجموعة من الباحثين، ط1، دمشق، دار الفكر، محرم1427 هـ/ يناير 2006م، ص92.

(4) انظر: ابن نبي، مالك: مشكلة الثقافة، ط4، دمشق، دار الفكر، 1994م، ص142.

(5) انظر: مرحبا، محمد عبد الرحمن: من الفلسفة اليونانيّة إلى الفلسفة الإسلاميّة، ط1، بيروت، منشورات عويدات، 1970م، ص290.

ثمّة عناصر مشتركة بين الحضارات، وبين أتباع الأديان السماويّة التي أصبحت داخل الأمّة الواحدة، والتي يمكن أن تُشكّل أساسًا راسخًا لقيام تعاونٍ مشتركٍ بين أتباع هذه الأديان، فجميعها يؤمن بإله واحد، وهذا الإيمان يتضمّن سلوكًا مستقيمًا ودعوة إلى السلام والمحبّة بين الناس، وتحقيق مبدأ التسامح الدينيّ المفضي إلى التعايش والتعاون بين الأفراد والقضاء على الطبقيّة والعنصريّة، والانفتاح على مختلف الثقافات والأنماط العقديّة الأخرى؛ بغية إشاعة الخير والمعروف، والحفاظ على تألّق الحضارة، ونشر ثقافة الحوار ونبذ التعصّب والصراع، واحترام كرامة الإنسان، والحرص على توفير الأمن والسلام، والحبّ والعطاء، والعيش الودّي المشترك بين المذاهب والأديان، والفلسفات والقيم الخُلُقيّة السامية، ونشدان الاستقرار، وزرع الثقة بين الناس[1].

ولذلك؛ كانت الحاجة والضرورة إلى التعايش مع الأديان والتعارف بين الحضارات ملحّة؛ لما تفرضه من الحفاظ على سلامة الكيان الإنسانيّ، وما يمليه الحرص المشترك على البقاء الحرّ الكريم فوق هذا الكوكب. ولهذا؛ يُعدّ التعايش ضرورة من ضرورات الحياة على هذه الأرض، حيث يستجيب للدواعي الملحّة على قاعدة جلب المنافع ودرء المفاسد، ويلبّي نداء الفطرة الإنسانيّة السويّة للعيش في أمن وسلام وطمأنينة، حتّى ينصرف الإنسان في دَعةٍ وسكينةٍ إلى تعمير الأرض، بالمعنى الحضاريّ والإنسانيّ الواسع لهذا التعمير[2]. وقد كان هذا ديدن رسول الله ﷺ حين وصل إلى المدينة (يثرب)، حيث شكّل وحدة سياسيّة ونظاميّة قوامها الإخاء الإنسانيّ بين سكّانها، ونزع كلّ مظاهر الفُرقة والتناحر التي كانت سائدة في المدينة؛ وذلك من خلال كتابة الصحيفة؛ بوصفها دستورًا ناظمًا للعلاقات الإنسانيّة

(1) انظر: الزحيلي، وهبة: «ثقافة التسامح بين الغرب والشرق»، مجلة التسامح، السنة6، العدد23، 1429هـ ق/ 2008م، ص280.

(2) انظر: التويجري، عبد العزيز: الحوار من أجل التعايش، ط1، القاهرة، دار الشروق، 1419هـ ق/ 1998، ص131.

بين المسلمين وغيرهم، والتي نقلت المتساكنين من نظام الأسرة والقبيلة والعشيرة والطائفة إلى نظام الأمّة الواحدة[1].

ومن هنا؛ فإنّ كلّ شعب ذي ديانات وطوائف عريقة متعدّدة سيكون محكومًا عليه التعايش والتآخي المشترك إذا ما نَشد الاستقرار، ورغب في التقدّم والنهوض بين الأمم. ولا خيار له سوى ذلك -عاجلًا أم آجلًا- وليس له سوى تفعيل المشتركات بين ثقافات دياناته ومذاهبه المتعدّدة، وكذلك الحوار العقلانيّ القائم على الاحترام المتبادل حول التباينات؛ لتقريب وجهات النظر حولها أو صرف النظر عنها، والتعايش المديد مع هذه الفروقات، وتَفَهُّم حقّ كلٍّ مذهب في ممارستها من دون النفخ فيه، وجعلها وسيلة لبث الفرقة والاحتراب[2].

**ثانيًا: التجربة النبويّة والوعي بالمنهج السننيّ:**

تُعدّ التجربة النبويّة -بحقّ- مرحلة بناء الأنموذج القدوة الذي أتى على تفكيك جميع مظاهر الحياة الاجتماعيّة الخاطئة التي سادت البلاد العربيّة قبل البعثة، والعمل على معالجة جوانب النقص والانحراف فيها، فكانت بذلك دليلًا على كيفيّة التعامل مع حياة الناس جميعًا على اختلاف عقائدهم، وتنزيل قيم القرآن عليها، وهي كالمنجم الغني بالخامات الثمينة التي تتطلّب براعةً واجتهادًا في تصنيعها وتحويلها إلى أوعية للحركة وتقديم الحلول لجميع النوازل، ولعلّ المساحات الكبيرة التي قدّمتها السيرة النبويّة للتعامل مع الآخر، بشتّى أنواع التعامل من التصالح والتسالم والتحاور والتعاهد والتعاقد والتحالف، تحتلّ جزءًا مهمًّا من حوادث السيرة[3].

(1) انظر: الشعبي، قائد: وثيقة المدينة - المضمون والدلالة، تقديم: عمر عبيد حسنة، ضمن «كتاب الأمّة»، ط1، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، العدد110، السنة25، ذو القعدة 1426هـ. ق/ يناير 2006م، ص36.

(2) انظر: السمّاك، رضا: «الأوطان وحتميّة التعايش الدينيّ»، مقالة منشورة على موقع الجزيرة العربية. نت، بتاريخ: الإثنين 04 مايو 2009م/ 09 جمادى الأولى1430هـ. ق.

(3) انظر: الشعبي، وثيقة المدينة - المضمون والدلالة، م. س، ص27.

وقد كان النبي ﷺ واعيًا كلّ الوعي، ومتبصّرًا في تصرّفاته وتحرّكاته بالسنن الربّانيّة التي تحكم حركة التاريخ وتضبطها، وبعلاقات الاجتماع البشريّ؛ إذ التعامل مع الكون والاجتماع الإنسانيّ لا يتمّ بالصورة الصحيحة إلا بعد فهم السنن الإلهيّة التي جعلها الله مفاتيح للتعامل مع موجودات هذا العلم، والتي تتيح للإنسان فرصة الاستفادة من كنوزه وثرواته التي لا تُعدّ ولا تحصى في آفاق الطبيعة والمادّة والنفس والإنسان والمجتمع[1].

لذلك؛ فإنّ الثقافة السننيّة المتكاملة -بما هي وعي بسنن الله تعالى في الخلق والتسخير والاستخلاف، وامتلاك للآليّات المنهجيّة الفعّالة للبحث عنها في عوالم الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، واقتدار متجدّد على استثمارها في تحسين الأداء الحضاريّ للمجتمع، وترقية مستويات الاستمتاع المشترك بالرفاه الاجتماعيّ الحاصل بين جميع أفراده- تُخرج المسلم من الوهم والخرافة والغوغائيّة، وتصله بحقائق الحياة والوجود، وتضع يديه على مفاتيح سنن التسخير في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد[2]، فتقوده إلى الانخراط الواعي بعد استثمار المعرفة السننيّة، وامتلاك آليّات التغيير في الارتقاء بالواقع الإنسانيّ إلى أعلى مستويات تكامله وانسجامه وتوازنه وأصالته وفعّاليّته، وتضمن الشروط الموضوعيّة للمحافظة على منجزات حركة البناء والتغيير[3]؛ ولكنّ الوعي بقوانين الإنجاز الحضاريّ واستثمار المعرفة السننيّة في بناء الصرح الحضاريّ لا يتمّ دفعة واحدة، وإنّما هو بحاجة إلى «تراكم في المعرفة والخبرة، وقراءة مستديمة وواعية في تحوّلات الحياة ويقظة التواصل»[4].

(1) انظر: سعيد، جودت: حتّى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم: مالك بن نبي، الدار البيضاء، المكتبة السلفية، 1993م، ص173.

(2) انظر: برغوث، الطيّب: مقدّمة في الأزمة الحضاريّة والثقافة السننيّة- تحليل لأهمّيّة المعطى الثقافيّ والتربويّ، ضمن سلسلة آفاق في الوعي السنني، ط1، الجزائر، دار قرطبة 1425هـ ق/ 2004م، ص39.

(3) انظر: برغوث، مقدّمة في الأزمة الحضاريّة والثقافة السننيّة، م. س، ص25.

(4) محفوظ، محمد: الإسلام ورهانات الديمقراطيّة، ط1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2002م، ص31.

وهذا ما حرصت عليه التجربة النبويّة في بداياتها؛ إذ عمل النبي ﷺ، قبل الشروع في بناء المجتمع الإسلاميّ الجديد، على ترسيخ قيم الأخوّة، ومبدأ وحدة الأصل الإنسانيّ، مع استحضار ذلك البعد العميق لجوهر الإشكالات المطروحة في المجتمع العربيّ من التنازع والاحتراب بين القبائل المتجاورة، وما عرفته من اضطراب وافتقاد لجميع مقوّمات العيش الكريم، من الأمن والتعايش السلمي. لذلك بادر إلى تشكيل وحدة سياسيّة ونظاميّة قوامها الإخاء الإنسانيّ بين سكّانها، نازعًا جميع مظاهر الفُرقة والتناحر، التي كانت ستعيقه في الإصلاح والتغيير، إنْ هو تجاهلها وقفز عنها، لكنّ عصمته وتأييده الإلهيّ، كما يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾[1]، بَصَّراه هذه التحّديات كلّها؛ حتى يحافظ على سلامة الكيان الإنسانيّ والتجمّع البشريّ وتقويم اعوجاجه. وقد تجلّى هذا الأمر واضحًا في تلك المواثيق والعهود التي كتبها النبي ﷺ؛ سواء في صلح الحديبيّة، أو في وثيقة المدينة، أو مع وفد نجران، أو من خلال رسائله إلى الملوك والأمراء، والتي تُعد بحقّ «منارات ومعالم رئيسة لكيفيّة التعامل والتعاقد والشراكة والتعارف والتوافق مع الآخر»[2].

ومن ثمّة؛ فقد سنَّ النبي ﷺ قوانين تتّسم بمنطق السماح والتجاوز مع الأمم المجاورة وغيرها، والتي لا تدين بدينها، في الوقت الذي كانت تتعالى فيه أصوات مُشرِكة وكافرة تريد الثأر والانتقام من النبي المبعوث إليهم بالرحمة المهداة، ومن دينه الجديد، فقابلهم بالإحسان بعد الإساءة، فاستطاع أن يحوّل ويغيّر سلوكات كثير منهم، وينقلهم من موقع العدو اللدود إلى الولي الحميم، امتثالًا لقول الحقّ تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ

(1) سورة النجم، الآيات 1-4.

(2) الشعبي، وثيقة المدينة - المضمون والدلالة، م. س، ص31.

حَمِيمٌ﴾[1]. وقد كانت هذه القوانين بمنزلة تأشيرة تسامح وتعايش لم تعهد في عالم مليء بالتعصّب والتعالي، فالذي يظنّ أنّ الإسلام لا يقبل جوار دين آخر، وأنّ المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلّط، هو رجل مخطئ؛ بل متحامل جريء[2].

لقد كان هذا السلوك قمّة في الوعي بالمنهج السننيّ الذي استقاه ﷺ من التنزيل الحكيم. وما أحوج الأمّة اليوم إلى تفعيل هذه المنظومة الأخلاقيّة، واستيعاب المنهج النبويّ الراشد واستدعائه والاقتداء به في التعامل مع هذه التحوّلات والإكراهات التي تحول دون تحقيق ذلك التساكن والتوادّ بين الأنساق الحضاريّة في واقعنا المعاصر وفي مستقبلنا القادم.

وقد بات من الضروري على أبناء المشروع الإسلاميّ العمل الجاد على التمثّل والاهتداء بهذه السنن التي أرشدنا إليها الحقّ تعالى في محكم آياته؛ «فبيّنت أنّ الأمم ما سقطت من عرش عزّها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود؛ إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنَّها الله على أساس الحكمة البالغة»[3]، ولذلك فمن الشروط المطلوبة اليوم لقيام الأمّة الإسلاميّة بدورها في العطاء والإنجاز الحضاريّ، والتأهّل للوراثة الحضاريّة: إحياء المنهج السننيّ وتأصيله؛ بوصفه مبدًا قرآنيًّا، وقد عُدّت السنن الجارية أساس كلّ كشف واختراع وتسخير وارتقاء وتغيير ونهوض ومداخلة وتعامل[4].

إنّ التحوّلات والتغيّرات المتسارعة في عالمنا اليوم، في مختلف المستويات والأصعدة، لا يمكن فهمها والإمساك بناصيتها والتحكّم في مسارها ومآلاتها بدون فكرٍ يستند إلى نواميس التطوّر الإنسانيّ، ويتناغم

(1) سورة فصلت، الآية 34.

(2) انظر: الغزالي، محمد: فقه السيرة، مراجعة وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، ط6 (منقحة ومحققة)، الإسكندرية، دار الدعوة، 1421هـ ق/ 2000م، ص166.

(3) الأفغاني، جمال الدين؛ عبدو، محمد: العروة الوثقى، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1389هـ ق/ 1970م، ص171.

(4) انظر: حسنة، عمر عبيد: الوراثة الحضاريّة، ط1، بيروت، المكتب الإسلامي، 1424هـ ق/ 2003م، ص65.

مع قوانين الرقيّ والتقدّم؛ وذلك لأنّ فقدان الفكر السننيّ، وعدم إدراك قوانين التطوّر الإنسانيّ، يؤدّيان إلى «لهاث فوضويّ وأبله، دون القدرة على التحكّم في مسارها ومصيرها، بينما الفكر السننيّ يوفّر القدرة المناسبة للتحكّم في مسار تطوّرات الحياة وتحوّلاتها المستمرّة»[1]؛ إذ الخروج من أيّ أزمة حضاريّة يمرّ حتمًا عبر إعادة بناء الوعي السنني المتكامل، الذي يُمكِّن المجتمع والأمّة من الاستثمار الأمثل لكلّ منظومات سنن التسخير في تلبية حاجاتهما الذاتيّة، ومواجهة التحدّيات المعاصرة المحيطة بهما، وتأهيل قدراتهما الإنجازيّة، لتحقيق مواكبة أو منافسة أو ريادة حضاريّة أصيلة وفعّالة ومطّردة[2].

ومن هذا المنطلق، ينبغي على الأمّة المؤمنة أن تهتدي إلى هذا المنهج في علاقاتها بالأنساق الحضاريّة المختلفة، وإعمالها لقانون المدافعة، وإلا تاهت وضلّت سبيلها؛ إذ التدافع الذي لا يؤسّس الوعي بسلطان السنن الإلهيّة الاجتماعيّة، ونفوذها المطّرد في الحياة البشريّة، سيكون تدافعًا فاشلًا وغير إنسانيّ وغير استخلافيّ، يقود المجتمعات الإنسانيّة إلى مزيد من التصادم الذي يدمّر أجزاء كبيرة من طاقاتها، ويحرمها من الاستفادة منها[3].

وقد تجلّى هذا الفعل الحضاري لرسول الله ﷺ واضحًا، من خلال تصرّفاته في المواثيق والعهود التي أبرمها مع الأمم والشعوب المجاورة، وكذا من خلال مكاتباته للملوك والأمراء؛ وذلك بعد استثماره للمنهج السننيّ، وإعمال سنن التعارف مع هذه الأنساق الحضاريّة؛ وهو ما انعكس عنه الفعل الإيجابيّ لكثيرٍ من أبناء هذه الثقافات، وكذا إسلام كثيرٍ من هؤلاء الملوك والأمراء.

ومن خلال محاولتنا التأصيليّة للتجربة النبويّة ووعيها بمنطق السنن

(1) محفوظ، الإسلام ورهانات الديمقراطية، م. س، ص27.
(2) انظر: برغوث، مقدّمة في الأزمة الحضاريّة والثقافة السننيّة، م. س، ص52.
(3) انظر: م.ن، ص40.

في إعمال قانون التعارف ومقاربته، سنقتصر على بعض النماذج التفسيريّة التي كان لها الوقع الكبير في تغيير مسار التاريخ الإنسانيّ، وتحقيق ذلك التناغم بين مختلف الأنماط الحضاريّة. فما هي طبيعة هذه النماذج؟ وما انعكاساتها على واقع العلاقات الإنسانيّة؟ وكيف استثمرها رسول الله ﷺ في تحقيق عالميّة الرسالة والمشروع الكونيّ الحضاريّ؟

**ثالثًا: نماذج تفسيريّة للتجربة النبويّة في إعمال سنن التعارف الحضاريّ:**

عرفت المرحلة المدنيّة من الدعوة الإسلاميّة تحوّلات كبيرة على مستوى العلاقات الخارجيّة، وخاصّة بعد توسّع رقعة انتشار الإسلام والمسلمين في معظم بقاع المعمورة، وهو الأمر الذي جعل النبي ﷺ يفكّر في رؤية استراتيجيّة لاستيعاب مختلف الأنساق العقديّة التي كانت حينئذ بالمدينة المنوّرة، وهو ما تمّ بالفعل حين حقّق ﷺ ذلك الاتّصال المباشر مع اليهود، وكذا ربط العلاقات مع النصارى والمجوس بالجزيرة العربيّة عن طريق عدد من الكتب والمعاهدات. ومن خلال بنود هذه المعاهدات، بدأ ﷺ يفعّل تلك القيم النبيلة والمفقودة في المجتمع العربيّ الجاهليّ. وإثباتًا لمنطق التعايش بين جميع الأجناس والقبائل، نجده ﷺ قد جمع حوله نفرًا من صحابته الكرام البررة، من الذين يمثّلون معظم الأجناس والتقاليد الحضاريّة القديمة، فكان ثمّة: الخباب بن الأرت، وأصله من العراق، وكان يمثّل حضارات ما بين النهرين، وصهيب الرومي؛ وهو يمثّل الجنس الروميّ (البيزنطيّ) وحضارته البيزنطيّة، وسلمان الفارسي؛ وهو يمثّل حضارة الفرس، ثمّ مارية القبطيّة التي كانت تمثّل حضارة مصر.

فمن الواضح -إذًا- أنّ من خصائص هذه الأمّة المستخلَفة والشاهدة أنّها ذات آفاق إنسانيّة عالميّة تستوعب القوميّات والأعراق والشعوب كافّة، فجمعت بحبّ ووئام بين العرب والروم والفرس والترك والأحباش والأكراد والهنود والبربر والزنوج وغيرهم تحت شعار الإسلام، وقد أسهم هذا التنوّع الإنسانيّ بتنافسه الإيجابيّ وإبداعاته الخيّرة في تشييد أعظم

صرح شهدته الإنسانيّة عبر الأجيال[1]. ويشهد الجميع أنّ مرحلة الإسلام كانت مرحلة متميّزة؛ إذ عرفت تعدّدًا وتنوّعًا وتعايشًا سلميًّا بين الأفراد والجماعات والديانات، واختلاطًا لأنماط الحياة والسلوك والعبادات.

لقد كانت ثقافة السلام والتعايش والتعارف مع الآخر في الإسلام ثقافةً راسخةً تُشخّصها ما جاءت به رسالته من استبعاد الانغلاق في الدين والرأي والموقف والسلوك، والتعامل مع الآخر، وقبول الاختلاف، والتعايش بين الديانات؛ وفاقًا لقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[2]، فهو دين يقيم رابطة الأخوّة الإنسانيّة بين أبناء المجتمع حماية وضمانًا لمبدأ السلام على أساس من المحبّة والألفة والتعاون والتضامن والإيثار ونبذ الخصومات. وبهذا كلّه «يتحقّق السلام الاجتماعيّ والأمن والسكينة، وتتوطّد دعائم المجتمع على وجه لا تصدّعه الأحداث، ولا تنال من هيبته الخطوب»[3]. ومن هذا المنطلق؛ نجد الإسلام يشجّع على تدعيم العلاقات السِّلميّة بين الأمم والجماعات؛ لتسهيل تبادل المنافع المادّيّة والاقتصاديّة، وتحقيق المقاصد الاجتماعيّة، وعقد أواصر المودّة والتعاون، وانتفاع كلّ أمة بما لدى الأمم الأخرى من ثقافة وعلم وخبرة في سبيل خيرِ الإنسانيّة ودفعها نحو التقدّم والازدهار والسلام.

ولأجل ذلك؛ انطلقت الدعوة المحمّديّة بالنداء الإلهيّ إلى أهل الكتاب والالتقاء معهم على كلمة سواء، وفق ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[4]، فشكّل

(1) انظر: الكفيشي، عامر: مقوّمات النهوض الإسلاميّ بين الأصالة والتجديد، ط1، بيروت، دار الهادي، 1427هـ ق/ 2006م، ص333.

(2) سورة الحجرات، الآية 13.

(3) الزحيلي، وهبة: «دعائم الأمن والسلام في الإسلام»، مجلة حضارة الإسلام، العدد3، السنة4، 1963م، ص46.

(4) سورة آل عمران، الآية 64.

هذا النداء الإلهيّ أوّل نداء عالميّ للتعايش السلميّ بين الديانات الموحّدة، وبين المجتمعات المختلفة[1]؛ ففي الآية الكريمة السابقة دلالة عميقة وواضحة على مبدأ التعايش في الإسلام، على اعتبار المساحة المشتركة الواسعة بين المسلمين وأهل الكتاب. ومن ثمّة؛ فالمسلم يعتقد أنّ الهدي الإلهيّ جاء عبر سلسلة طويلة من الرسالات والنبوّات، آخر حلقاتها اليهوديّة، ثمّ المسيحيّة، فالإسلام. فمن الطبيعي جدًّا «أن تكون هذه الأديان الثلاثة أقرب إلى بعضها بعضًا، منها إلى سائر الأديان»[2].

ولم يبقَ هذا النداء الإسلاميّ تنظيرًا؛ بل وجد تطبيقه في الحياة العمليّة لرسول الله ﷺ؛ وذلك حين قنّنه، سواء في الدستور المكتوب الذي أعلنه في المدينة بعد هجرته، والذي سُمّي بالصحيفة، أو مع وفد نجران، أو من خلال تلك الرسائل والمكاتبات التي وجّهها إلى الملوك والأمراء؛ وذلك بعد أنْ أرسى النبي ﷺ قواعد مجتمع جديد وأمّة إسلاميّة جديدة، بإقامة الوحدة العقديّة والسياسيّة والنظاميّة بين المسلمين؛ إذ بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان قصده بذلك توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشريّة جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد، فسنّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في ذلك العالم المليء بالتعصّب والأغراض الفرديّة والعرقيّة[3].

كثيرة هي النماذج من السيرة النبويّة العطرة التي تؤصّل لمنطق التعارف والتعايش وتؤسّسه بين مختلف الحضارات السائدة في بلاد شبه الجزيرة العربيّة، وحسبنا -هنا- أن نقتصر على ثلاثة نماذج للتبيان والتوضيح:

**1. التعامل مع اليهود من خلال صحيفة المدينة:**

عندما جاء النبي ﷺ إلى المدينة وجد بها يهودًا توطّنوها ومشركين

(1) انظر: أبو طالب، «عالميّة الإسلام، ونداؤه للسلام، ودعوته للتعايش والاعتراف بالآخر»، م. س، ص40.
(2) حتحوت، حسّان: رسالة إلى العقل العربيّ المسلم، لا. ط، القاهرة، دار المعارف، لا. ت، ص154.
(3) انظر: المباركفوري، صفي الرحمن: الرحيق المختوم، الطبعة الشرعيّة-منقحة، المنصورة، دار الوفاء، 1424هـ ق/ 2003م، ص180.

مستقرّين فيها، فلم يتّجه فكره ﷺ إلى رسم سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قَبِلَ -عن طيب خاطر- وجود اليهوديّة والوثنيّة، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الندّ للند، على أنّ لهم دينهم وله دينه[1]، فقد كانوا أقرب إلى مجاورة المسلمين من غيرهم، وإنْ كانوا يبطنون العداوة للمسلمين؛ ولكنّهم لم يكونوا يظهرون أيّ مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة، قرّر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرّيّة في الدين والمال، ولم يتّجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام[2]، فعملت هذه الصحيفة من خلال بنودها على استبدال مفهوم الفرقة والصراع بين الشعوب والقبائل بمفهوم الأمّة القائمة على الوفاق والتعايش مع حفظ الخصوصيّات، حيث تَكَوَّن لأوّل مرّة في المدينة مجتمع تتعدّد فيه علاقات الانتماء إلى الدين والجنس، ولكن تتوحّد فيه علاقة الانتماء إلى الأرض المشتركة؛ أرض الوطن[3].

لقد كانت الصحيفة فاتحة الطريق أمام مرحلة جديدة من مراحل التعارف العمليّ بين أمّة الإسلام وغيرها من أصحاب العقائد؛ كاليهود والنصارى[4]، على أساس من حرّيّة الاعتقاد، والمساواة في حقوق المواطنة داخل الأمّة الواحدة[5]، وأثبتت رغبة المسلمين في التعاون الخالص والمثمر مع يهود المدينة، ونشرت السكينة في ربوع المدينة، وضربت على أيدي جميع العادين ومدبّري الفتن، أيًّا كان دينهم[6].

وبهذا، فقد أوفى النبي ﷺ بحسن الجوار مع اليهود؛ وذلك حين قدَّم

(1) انظر: الغزالي، فقه السيرة، م. س، ص166.
(2) انظر: المباركفوري، الرحيق المختوم، م. س، ص180.
(3) انظر: الشعبي، وثيقة المدينة - المضمون والدلالة، م. س، ص209.
(4) انظر: الباش، حسن: منهج التعارف الإنسانيّ في الإسلام - نحو قواسم مشتركة بين الشعوب، ط1، ليبيا - طرابلس، منشورات جمعية الدعوة الإسلاميّة العالميّة، 2005م، ص37.
(5) انظر: عمارة، محمد: الإسلام والآخر من يعترف بمن، ومن ينكر من؟، ط1، مصر، مكتبة الشروق، 2001م، ص28.
(6) انظر: الغزالي، فقه السيرة، م. س، ص167.

لهم عهودًا وضمانات، بدّد بها مخاوفهم وأزال وساوسهم، وبخاصّة إذا استحضرنا ذلك الواقع المضطرب من التقاتل والتباغض الذي كان سائدًا حينئذ؛ ما جعله يسهم في التأسيس الفعلي للأنموذج الراقي لإقامة تعايش سلميّ، بعد أن قضى على جميع أشكال الفرقة والتناحر بين النوع الإنسانيّ، بجميع أطيافه وعقائده.

**2. التعامل مع النصارى (وفد نجران):**

توضح معاهدة النبي ﷺ مع نصارى نجران مدى احترامه وتفهّمه وتعايشه مع الآخر، واحترام عقيدته؛ فقد شكّلت هذه المعاهدة أنموذجًا رائعًا وخير مثال على الحرّيّة الدينيّة في الإسلام. وتروي كتب السيرة أنّ نصارى نجران بَعثوا ذات يوم وفدًا مكوّنًا من ستّين عضوًا إلى النبي ﷺ؛ وذلك بعدما استَتَبَّ لهم الأمر في يثرب، إذ تحاوروا معه مطوّلًا بشأن رسالته، وتفهّموا مقاصدها، واطمأنّوا في النهاية إلى صدقه، فسألوه أن يردّ على زيارتهم بإرسال مبعوث عنه إلى نجران، وقد عهد النبي ﷺ إلى مبعوثه عمرو بن حزم بالقيام بهذه الزيارة التي مهّدت لإعطاء نبي الإسلام فيما بعد وثيقة أمان وسلام لنصارى نجران. فكتب لهم رسول الله كتابًا يحفظ عند أعقاب المسلمين من كان منهم سلطانًا أو غير سلطان؛ وذلك ليدخلوا في أبواب الوفاء، ويكونوا عونًا على الدعوة، وغيظًا لأهل التكذيب والتشكيك، ولئلا تكون الحجّة لأحد من أهل الذمّة على أحد ممّن انتحل ملّة الإسلام مخالفًا لما وضع في هذا الكتاب، والوفاء لهم بما استوجبوا واستحقّوا من النبي ﷺ [1].

وممّا ورد في هذه المعاهدة: أنّ لنجران وحاشيتها جوار الله، وذمّة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم، وكلّ ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف

(1) انظر: حميد الله، محمد: مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبويّ والخلافة الراشدة، ط6، بيروت، دار النفائس، 1407هـ ق/ 1987م، ص185.

من أسقفيّة، ولا راهب من رهبانيّة، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دية ولا دم جاهليّة، ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين[1].

وما يجسّد فعل التسامح وحسن معاملة النبي ﷺ مع وفد نجران؛ أنّهم عندما دخلوا عليه -وهو في مسجده بعد فراغه من صلاة العصر- جلسوا معه، فلمّا حان وقت صلاتهم قاموا في مسجده ﷺ يصلّون، فَهمَّ صحابته الكرام إلى منعهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوهم»، فصلّوا إلى المشرق[2]. فشكّل هذا التصرّف النبويّ تجلّيًا حقيقيًّا من تجلّيات التعايش. والأمثلة كثيرة، وردت في مصنّفات السيرة النبويّة.

إنّ الضمانات التي أعطاها نبي الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ لليهود؛ لإقامة تعايش سلمي بين الديانتين، أعطى مثلها للنصارى، بمجرّد وصول الإسلام إلى وفد نجران في اليمن، فبدّد بهذا الميثاق السلمي الذي أعطاهم إيّاه، هاجس خوف النصارى من تكرار المحرقة اليهوديّة التي ظلّ نصارى نجران يعانون منها طيلة سنوات خلت، وكان تعهّد الإسلام بالتعايش مع النصرانيّة الحلقة الثانية في مسلسل التعايش السلمي الذي جاءت به دعوة النبي محمد ﷺ؛ وهو تعايش على أرض الواقع؛ تطبيقًا عمليًّا لنداء التعايش بين الإسلام وديانتي أهل الكتاب من اليهود والنصارى[3]. لقد كان مقصد الرسول ﷺ من نشر قيم الخير والسلام، وأخلاقيّات التعامل الحضاري طيلة حياته الشريفة: التأكيد على ثقافة التسامح لدى المسلمين، وغرس القيم النبيلة؛ الشيء الذي نتج عنه بناء حضارة إسلاميّة رائدة تستند إلى العقل، وتقوم على الاجتهاد، وتنبذ جميع أشكال التعصّب والتطرّف والتحجّر والانغلاق.

(1) انظر: البلاذري، أبو الحسن: فتوح البلدان، مراجعة وتعليق: رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1403هـ ق/ 1983م، ص76؛ حميد الله، مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبويّ والخلافة الراشدة، م. س، ص176.

(2) انظر: الحميري، ابن هشام: السيرة النبويّة، تحقيق وضبط وشرح: مصطفى السّقا؛ وآخرون، بيروت، المكتبة العلمية، لا. ت، ج2، ص574.

(3) انظر: أبو طالب، «عالميّة الإسلام، ونداؤه للسلام، ودعوته للتعايش والاعتراف بالآخر»، م. س، ص44.

واقتداءً بهذا المنهج، تعايش المسلمون مع معتنقي مختلف الديانات في المجتمع الإسلاميّ وغيرهم من اليهود والنصارى؛ حيث ضمن لهم الإسلام حقوقهم الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، سواء في الصحيفة التي أعلنها الرسول ﷺ عندما استقرّ في المدينة، أو من خلال معاهدته ﷺ لوفد نجران، فلم يكن ﷺ يخشى ولا يرى أيّ خطر يهدّد دولته ومجتمعه الفتيّ جرّاء إقرار صيغة للعيش المشترك بين معتنقيه وبين غيرهم من أتباع الديانات الأخرى؛ بل قَدَّم مثالًا حيًّا وتطبيقًا رائعًا لهذا المبدأ؛ إذ يحقّ لنا نحن المسلمين أن نعتزّ ونفخر به على غيرنا من الأمم والشعوب التي ما زال بعضها حتى اليوم يضيق عن الاعتراف بالآخرين وبحقّهم في ممارسة عقائدهم المخالفة[1].

### 3. مكاتبة ملوك الدول وحكّامها:

ولكي تكتمل صورة التعارف عند النبي ﷺ ومنهجه في التعامل مع الأمم والشعوب المجاورة، بعث برسائل عدّة إلى ملوك عصره من أهل الكتاب؛ وخاصّة المسيحيّين[2]. ففي السنة السادسة للهجرة بعث برسالة إلى النجاشي، وبرسالة إلى هرقل قيصر الروم، وإلى المقوقس ملك القبط، وإلى ابني الجلدوني حاكمي عمان وكانا من النصارى، وإلى الحارث الغسّاني صاحب دمشق، وإلى ملك اليمامة هوذة بن علي الحنفي، وإلى أسقف نجران أبي الحارث، وإلى ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم، وإلى أسقف الروم في دمشق، وإلى ملك القدس يوحنا بن رؤبة، وإلى أكيدر بن عبد الملك، ومزوة بن عمر والجذافي؛ وكانوا في غالبيّتهم من النصارى. «فعن يوسف بن حمّاد المَعني، حدثنا عبد الأعلى، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس: أنّ النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي،

(1) انظر: الأمين، حسن محمد: الاجتماع العربي الإسلامي-مراجعات في التعددية والنهضة والتنوير، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، ط1، بيروت، دار الهادي، 11424هـ. ق/ 2003م، ص67.

(2) انظر: حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، م. س، ص101-140؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، م. س، ص304-313.

وإلى كلّ جبّار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلّى عليه النبي ﷺ»[1].

ولو دقّقنا النظر في مضمون الرسائل ومحتوياتها لوجدنا فيها عبرًا ودلالات عميقة في التعارف الإنساني بين أمّة الإسلام وغيرها من الأمم، كما تُبيِّن هذه الرسائل أنّ رسول الله ﷺ لم يكن له مطمعٌ بِمُلكٍ ولا جاه ولا احتلال؛ وإنّما كانت دعوته إيّاهم للإسلام للهداية وليعمّ السلام. وقد تجسّد في رسائله ﷺ إلى الملوك، جوهر الإسلام الذي يقدّر أصحاب العقائد الأخرى ويدعوهم إلى توحيدها لتعود إلى الإسلام الشامل الإنسانيّ العالميّ، وقد كان سنده المتين الذي تقوم عليه رسائله هو قول الحقّ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[2]. إذا تأمّلنا مجريات العهد النبوي وأحداثه؛ نجد أنّ صاحب الدعوة الإسلاميّة الرسول الأكرم ﷺ قد اتّخذ أسلوب الحوار في مخاطبة الآخرين؛ أفرادًا، وجماعات، وديانات، وكُتَل سياسيّة، وحضارات عالميّة، ودعا إلى الاتّفاق على كلمة سواء يمكن إطلاق تعبير «الوفاق» عليها. ومن يقل بالوفاق يقل -حكمًا- باستبعاد الانغلاق في الموقف والرأي والسلوك، ويقرّ بالانفتاح على الآخر، والتعامل معه وفق احترام وتفاهم متبادلين[3].

ومن هنا، أدرك رسول الله ﷺ -في إطار حركته العالميّة وتحرّكه نحو مكاتبة الملوك والأمراء- الوشائج التي تربط الإسلام بالمعسكر البيزنطيّ-النصرانيّ؛ لأنّه ينتمي إلى دين سماويّ تنصّ مصادره الدينيّة على نبوّة الرسول ﷺ، ما سيقودهم إلى تفهّم دعوته التي انطلق بها سفراؤه إلى ملوك هذا المعسكر وحكّامه. ولذلك؛ رأى النبي ﷺ أن يرسل بكتبه إلى

---

(1) انظر: النيسابوري، مسلم: صحيح مسلم، ط1، مصر، مكتبة الصفا-الأزهر، 1424هـ. ق/ 2004م، ج2، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفّار يدعوهم إلى الله، ح1774، ص246.

(2) سورة آل عمران، الآية 64.

(3) انظر: أبو طالب، عبد الهادي: حقيقة الإسلام، المغرب، إفريقيا الشرق، لا. ت، ص81.

رؤساء الدول الكبرى وإلى أمراء الولايات المحتلّة على سواء، يدعوهم إلى الله ويعرض عليهم الإسلام: «أسلم تسلم»؛ كما جاء في تلك الرسائل، مع العلم أنّ أصحاب الرسالات لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيّق المنكور؛ إذ إنّ ثقتهم العميقة في سيادة فكرتهم وامتداد نطاقها تُصَغِّر العقبات المفردة في الطريق، وتجعلها -ولو كان الشمّ الرواسيّ- هباءً منثورًا[1].

إنّ في ذلك تدافعًا مع هذه الأنساق العقديّة المنحرفة، حيث إنّ في دعوتهم إلى الكلمة السواء نقلًا وتحريكًا من موقع عبادة العباد إلى موقع عبادة ربّ العباد، وإنْ كان في هذا الأمر مخاطر، وبخاصّة إذا علمنا أنّ الملوك كانوا يخشون على رئاستهم وإماراتهم، ولكنّه ﷺ ما كان يخاف في ذلك لومة لائم، وقد اعترضه في سبيل تبليغ هذا الدين إلى الأمصار المجاورة عقبات تلو العقبات، ولم يتقاعس قط أو يتثاقل عن أداء رسالته؛ لأنّه حينما تكون الإرادات والعزائم قويّة؛ فإنّها تكون مدعاة إلى الإقدام، وإلى تعميق الثقة في الفكرة والمشروع؛ وهو ما كان له الأثر الطيّب والانعكاس الجليّ في ترسيخ مبدأ التعارف بين أبناء هذه المعتقدات؛ إيمانًا منه بالسعي نحو التقريب لا التنافر، والتعارف لا التناكر.

## خاتمة:

إنّ حرص النبي ﷺ -من خلال تجربته الفريدة والمتميّزة التي لامسنا جزءًا من تجلّياتها- على التأصيل والتأسيس لمبدأ التعايش والتعارف، وتعزيزه بالفعل الميدانيّ في حلقاته الثلاث[2]، واضح وجلي لضمان تنفيذه وتفعيل بنوده؛ وذلك وعيًا منه وإيمانًا بحتميّة التعايش المشترك بين معتقدات أهل المدينة ودياناتهم في بناء مجتمع إنساني سليم، يسوده

(1) انظر: الغزالي، فقه السيرة، م. س، ص306-311.

(2) حلقة التعايش الأولى مع اليهود من خلال وثيقة المدينة، والحلقة الثانية مع النصارى من خلال وثيقة الأمان التي أعطيت لوفد نجران، والحلقة الثالثة من خلال رسائل الملوك.

الأمن والسلم والودّ والتسامح والإخاء الإنسانيّ، انطلاقًا من تلك الفطرة الكامنة في الإنسان والمجبول عليها في حبّ السلم والسلام، ومناشدة الأمن والأمان. وهذا ما يؤكّد أنّ المسلمين كانوا عبر التاريخ روّادًا للتعايش، وأنّهم يملكون الاستعداد الفطريّ والذاتيّ ليتعايشوا مع جميع من يرغب من أهل الأديان والشرائع والملل والعقائد في التعايش معهم؛ وذلك في جميع الأحوال والأزمان؛ اعتقادًا منهم أنّه تعايش يخدم أغراضًا إنسانيّة سامية، من خلال التفاهم والتعاون والعمل المشترك في الميادين التي تحقّق المقاصد والغايات النبيلة.